روائع المعمار الإسلامي

٤

مسجد أحمد بن طولون

بقلم
بسّام الشمّاع

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

تصميم الغلاف
محمد عطية

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧- فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مصرُ ما قبلَ ابنِ طُولون:

ظلتْ مصرُ تحتَ الولايةِ الأمويَّة والعباسيَّة لمدةٍ ليستْ قصيرةً.. أصبحتْ اللغةُ العربيةُ هيَ اللغةُ الرسميَّة للإدارةِ فِى مصر فى عام ٧٠٩ ميلادياً (٨٧ هجريــة). ومــنْ أكثَر الحقبِ إثــارةً كانتْ تلكَ الفتــرةِ التى حكَم فيهَا الخليفةُ العباســىُّ المشــهورُ «هارون الرشيد»، حيثُ حكمَ الأرضَ المصريَّة حوالى ٢٤ والياً علَى مدىَ ٢٣ عاماً وهىَ مدةُ خلافتِه، حتَّى تمَ تعيينُ أحمدَ بن طُولون والياً فى عام ٨٦٨ ميلادياً (٢٥٤ هجرية). دَعونى أصطحبُكم إلىَ هذه الرحلةِ التى سوفَ نجولُ خلالهَا فى سَراديب تاريخ مسجدِ هذَا الرجلِ الذى سَطَّر فصلاً من فصولِ التَّاريخ المصرىِّ الإسلامىِّ الجديرِ بالدراسةِ.

منْ هوَ أحمدُ بن طُولون ؟

هوَ مؤسسُ الأســرةِ الطُّولُونية التى حكمتْ مصرَ حوَالى ٣٧ عاماً إبَّان الخلافةِ العباسيَّة حتَّى عَام ٩٠٥ ميلادياً - ٢٩٢ هجريَّة.

اســمُــه: أحمــدُ بنُ طُولون. اســمُ الوالــدِ: طُولون - وهــوَ من أصلٍ منغولىٍّ.

سنةُ الميلادِ: رمضَان ٢٢٠ هجرية - سبتمبر ٨٣٥ ميلادياً.

مكانُ الميلادِ: بغدادُ، العرَاق.

معنىَ كلمةِ طولون: أصلُ الكلمةِ تركىٌّ ومعنَاها: البدرُ الكاملُ

أشهرُ أبنائه: العبَّاس وخمَارويَة.

عنوانُ إقامتهِ فى مصرَ: مدينةُ القطَائع التى أسَّسها عَام ٢٥٦ هجريَّة، وأنجزهَا فى عام ٢٦٤ هجريَّة ٨٧٧ ميلادياً . وهىَ إلىَ الجانبِ الشَّمالى الشَّرقى فى مَدينةِ الفسطاطِ التى ذابتْ فيهَا فيمَا بعد عندَما شيَّد الفاطميونَ مدينةَ القاهرةِ كعاصمةٍ لمصرَ.

الوفاةُ: تُوفىَ أحمدُ بنُ طُولون فى عام ٨٨٤ ميلادياً عن عمرٍ يناهزُ الـ ٥٠ تقريباً. صفاتهُ: الكرمُ والصَّلاح والذَّكاء والشَّجاعة والحنكةُ السياسيَّة والورعُ.

إنجازاتُ أحمدَ بن طُولون المعماريَّة:

كانَ أحمدُ يحبُّ إنشاءَ المبَانى الكبيرةَ علَى مساحاتٍ شاسعةٍ، وقد عاشتْ مبانيهِ لمدةٍ طويلةٍ وهىَ حتَّى الآنَ فى حالةٍ جيدةٍ وتَلقَى الاهتمامَ والرِّعايةَ اللازمةَ متمثلةً فى الدراسةِ والترميم علَى أيدى المتخصصينَ المصريينَ المتميزينَ. وبجانبِ مسجدِه والذى سوفَ نستفيضُ فى شرحهِ بعدَ هذِه الفقرةِ، أنشأَ قناطرَ ميَاه ابنِ طُولون وهوَ أثرٌ قديمٌ يرجعُ إلىَ القرنِ الثَّالث الهجرىِّ – القَرن التَّاسع الميلادِى – وهوَ مازالَ قائمًا حتَّى يومنَا هذَا ويقعُ هذَا الأثرُ المهمُ فِى منطقةِ مصرَ القديمةِ والفسطاطِ الأثريَّة وعنوانُ القناطرِ هوَ منطقةُ البسَاتين ولكنَّه معروفٌ ببيرِ أمِّ السُّلطان.

ومنْ ضمنِ إنجازاتِ أحمَد بنِ طُولون المعماريَّة هوَ الأثرُ الذى يُطلق عليهِ البيتُ الطولونىُّ وهوَ يقعُ الآنَ بشارعٍ على ظريف بمنطقةِ المدَابغ.

ويوجدُ أيضاً بقايَا السَّاقية الطُّولونية خلفَ مسجدِه بقلعةِ الكبشِ وقدْ كانتْ تُستخدم فى رفعِ الميَاه من المستوياتِ الدنيَا إلىَ العُليا.

وقـدْ أمـرَ ببناءِ دارٍ بجوارِ مسـجدِه قيلَ لهَا دارُ الإمـارةِ، وكانَ بهَا مسـتلزماتهُ حيثُ كَانَ يسـتريحُ بهَا ويغيِّر ثيابَه ويتوضأُ ويتطهرُ قبلَ صـلاةِ الجمعـةِ. وكانَ لهذِه الدَّار بـابٌ يفتحُ فى إيـوانِ القبلةِ بجانبِ المحْراب والمنبرِ والقبةِ الصغيرةِ.

«لا يغرق ولا يحْـرق» :

عندمَـا كانَ أحمدُ بن طولون يفكرُ فى بناءِ المسـجدِ طلبَ من معَاونيه أن يهْتـدوا معهُ لفكرةٍ ولحلٍ، حيثُ قالَ إنَّه يريدُ مسـجدًا لا يغرقُ فى المياهِ لو غرقتْ مصرَ ولا يحترقُ إذا احترقتْ مصرُ. فلمَا وصلَ إلى مسَامعِ المهندسِ النَّصرانى هذَا الطلبَ بعثَ للأميرِ بأنَّه علَى استعدادٍ لعملِ ذلكَ المبنىَ. وقالَ إنَّه سوفَ يبْنى المسجدَ من الطُّوب الأحمَر الذى لا يحترقُ ولنْ يسـتخدمَ الرُّخام لأنَّه يحترقُ (كانَ هناكَ سببٌ آخرُ لعدمِ استخدامِ الأعمدةِ الرُّخامية ألاَ وهوَ أنَّ ابنَ طُولون لمْ يكنْ يريدُ أنْ يأخذَ أعمدةً منَ كنائسَ أو معابدَ ليضعَها فِى مسجدِه)، أمَّا عنْ الغرقِ فى المياهِ منْ جراءِ الفيضانِ أوْ لأىِ سببٍ مَا فقدْ تمَّ تشْييده فوقَ جبلِ «يشكرُ» وهوَ مكانٌ عالٍ عنْ سطحِ الأرضِ ويصْعبُ وصولُ مستوى المياهِ إليهِ.

مسجدُ أحمدَ بنِ طُولون الكبير :

هذَا المسـجدُ الواسـعُ المسَـاحة والمرتفعُ الجدرانِ، يُعتبر منْ أكبرَ المسَـاجد المصريَّة إذْ تصلُ مساحتُه إلىَ ستةِ أفدنةٍ ونصفٍ منَ الأفدنةِ. وهـوَ يحْتـوى علَى أعمالٍ فنيَّة ومعماريَّة مدهشـةٍ سـوفَ نتعرضُ لهَا بالتفصيـلِ لكَى نتعرفَ علَى هذا الإنجازِ المبهرِ. وحتَّى بعدَ وفاةِ أحمدَ ابنِ طُولون وانتهاءِ فترةِ حكمِ الأسـرةِ الطُّولونية، قامَ العديدُ منَ الحكام

والقوادِ والملوكِ بترميمهِ وإعادةِ بناءِ أجزاءٍ منهُ، ومنهمْ منْ أضافَ بعضَ المبانيِ والوحداتِ الزخرفيَّة الفنيَّة للمسجدِ ممَّا جعلَه بحقٍ منَ التحفِ الإسلاميَّة التى يجبُ أن يراهَا أىُّ مهتمٍ بالعصورِ والفنونِ الإسلاميَّة.

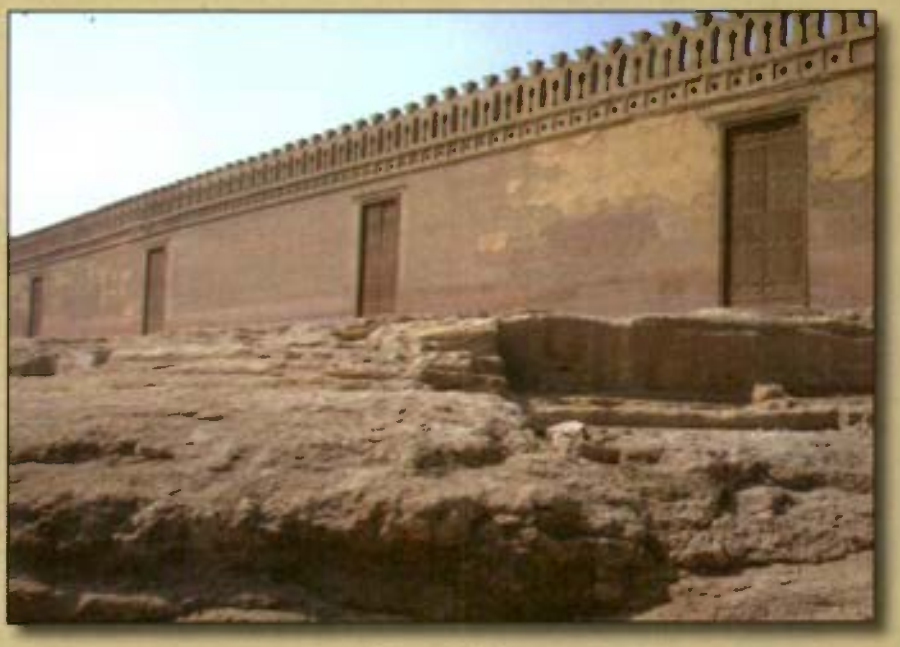

مسجد أحمد بن طولون

الشَّكل العام للمسجد :

تمَّ تشييدُ المسجدِ علَى منطقةٍ تُدعى جبلُ «يشكرُ» وهوَ مكانٌ مرتفعٌ بعضَ الشيءِ. يكادُ شكلُ المسجدِ الكلِّى أنْ يكونَ مربعًا، فقدْ تمَّ رفعُ مقاساتِه عنْ طريقِ المتخصصينَ فوَجدوا أنَّ طولَ ضلعِه يصلُ إلى ١٦٢,٥ × ١٦١,٥ متر وذلكَ متضمنةً «الزيادةَ» وهىَ المساحةُ الفضاءُ التى تفصلُ جسدَ المسجدِ نفسِه عنْ العاصمةِ ببيوتِها وشوارعِها وأسواقِها. وقدْ كانتْ فكرةُ الزيادةِ مطبقةً فِى مساجدَ قاهريةٍ كثيرةٍ، ولكنْ زيادةُ ابنِ طُولون تعتبرُ من أكثرِها احتفاظًا بنفسِها بعيداً عن الدمارِ أو الوهنِ حتَّى الآن. وعندَ زيارةِ المسجدِ

المدخل الرئيسى الحالى الذى يؤدى إلى الزيادة

تجـدُ نفسَـك متجهـاً للجدار الشـمالىِّ الشـرقىِّ للزيادةِ لأنَ بهَا بوابة الدخولِ الحالية. وقدْ أحاطَ مهندسُـو البناءِ فى عصرِ ابنِ طُولون المسـجدَ من جوانبه الثلاثـةِ: الجنوبـىِّ الغربـىِّ والشـمالىِّ الغَربـى والشَّـمالى الشرقىِّ بمساحاتِ الزيادةِ ولكن حَائِـط القبلةِ التى يسـكنُ بَها محرابُ القبلةِ لمْ تكنْ وراءَه أىُّ زيـادةٍ، بلْ كانَ هناكَ مبنىَ دارِ الإمـارةِ التى كانَ يسـتعدُ فيهَا أحمدُ بنَ طُولون قبلَ الدخولِ إلىَ المسجدِ للصَّلاة منْ بابٍ فى هذَا الحائطِ فُتح خصيصاً لهذَا الغرضِ. والحقيقةُ أنَّ الزيادةَ تعتبرُ فكرةً عبقريَّة؛ لأنهَا بالفعلِ تفصلُ المُصلى وزائرَ المسجدِ الطَّالـبَ للروحانياتِ والقاصدَ وجهَ اللهِ الكريم سـبحَانه وتعَالى عن الحياةِ اليوميَّة خارجَ المسـجدِ المليئةِ بصخبِ المدَينةِ بشوارعِها وأسواقِها التّى تعجُ بالحركةِ والنشـاطِ التِّجارى اليومىِّ والمعامـلاتِ الاجتماعيَّة. ويبلغُ عرضُ الزيادةِ ١٩ مترًا وهىَ المسافةُ بينَ الحائطِ الخارجىِّ (أولُ مَا يُشاهدُه الزائرُ للمسـجدِ) والحائطُ الثَّانى الذىَ يؤدِى إلىَ داخلِ المسـجدِ نفسِـه. ويوجدُ ستةُ أبوابٍ فى الحَائط الشَّمالى الشَّرقى ومثلُه فى الحائطِ الجنوبىِّ الغربىِّ، وسبعةٌ فى الحَائط الشَّمالى الغربىِّ.

أمَّا عنْ الحائـطِ الثَّانى المؤدى إلىَ داخلِ المسـجدِ، فهوَ مرتفعٌ بعضَ الشىءِ عنِ الحائطِ الخارجىِّ للزيادةِ.

ويتميزُ بوجودِ عـددٍ كبيرٍ منَ النوافـذِ المزخرفةِ علَـى ارتفاعِ سـبعةِ أمتـارٍ عنَ مسـتوىَ أرضِ الزِّيـادة. حتَّى الأبـوَاب فِى هذَا الحائطِ ترتفعُ عنْ سـطحِ الأرضِ، ولذلكَ يوجدُ عددٌ قليلٌ منَ السَّلالم نصـفِ الدَّائرية والتـى يرتقيها الزائرُ تنتهى بالبوابةِ التى يخلعُ عندَهـا الزائـرُ حـذاءَه احتراماً لحرمةِ المسجدِ.

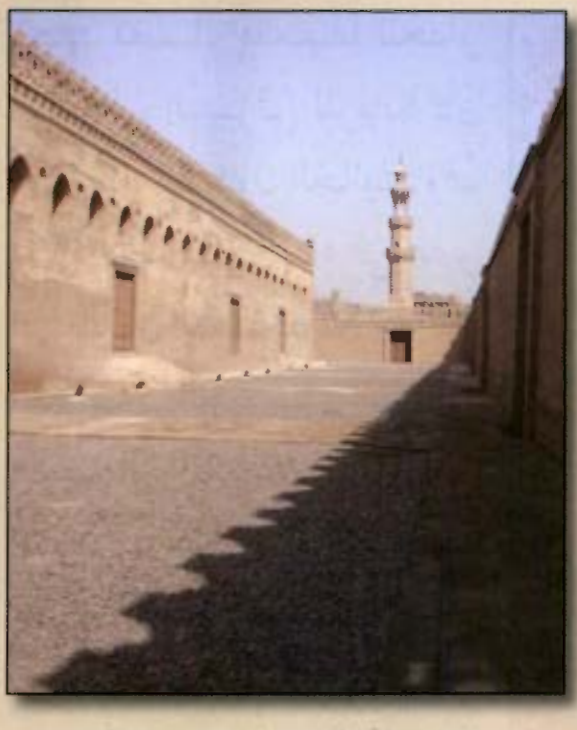

الزيادة الفاصلة بين المسجد والمدينة

قبلَ دخـولِ المسجدِ :

قبـلَ صعـود الـدرجِ نصـفِ المستديرِ انظرْ، عزيزىَ القارئ، إلىَ يسـارِك، سـوفَ تجدُ مبنىً عليكَ أنْ تتيحَ الوقْت لنفسِك لكَى تـزورَه ألاَ وهوَ منـزلُ آمنة بنتِ سالم وبيتِ الكيريتليَّة أوْ مُتحف جايرآندرسون.

بيت الكريتلية (متحف جاير آندرسون)

المسجدُ منَ الداخلِ :

يتميزُ المسجدُ بوجودِ ساحةٍ مفتوحةٍ تُسمى «الصَّحن» تتوسطُها قبةٌ تعتلى النَّافورةَ (لاَ تعملُ الآنَ) والتى كانَ يُطلق علَيها «الفوَّارة» وقصةُ هذهِ الفوَّارة هىَ قصةُ التواصلِ بينَ الأجيالِ المتعاقبةِ، حيثُ كانتْ فى البدايةِ طولونيَّة ثمَّ أعادَ بناءَها منَ الخشبِ الخليفةُ الفاطمىُّ العزيزُ (٩٧٥ - ٩٩٦ ميلادياً)، ثمَّ أعادَ بناءَها السُّلطان «لاجين» (١٢٩٧ - ١٢٩٩ ميلادياً). وهوَ المنصورُ حسام الدين لاجين، وكانَ هذَا المملوكُ يتبعُ مجموعةَ سلاطين المماليكَ البحريَّة. وقدْ كَانوا منْ ممَاليك السُّلطان قَلاوون. وقدْ تولَت المماليكُ البحريَّةُ الحكمَ فى مصرَ من عام ١٢٥٠ ميلاديًّا ٦٨٤ هجريًّا حتىَّ عَام ١٣٩٠ ميلاديًّا ٧٩٢ هجريًّا. وقدْ أخذوا اسمَ البحريَّة لأنهُم كَانوا يقيمونَ فى جزيرةِ الرُّوضة بنهرِ النيلِ. وقدْ كانَ المماليكُ يتلقونَ التدريباتِ العسكريةِ علَى مستوىَ عالٍ جدًا منذُ الصغر. وقد كانتْ بدايةُ انتشارِهم فِى مصرَ إبَّان الحكم الأيوبىِّ (١١٧١ ميلاديًّا ٥٦٧ هجريًّا - ١٢٥٠ ميلاديًّا ٦٤٨ هجريًّا). ويعتبرُ بعضُ المؤرخينَ أنَّ الملكةَ شجرَ الدُّر (وليستْ شجرةُ الدُّر) هىَ أولُ المماليكِ البحريَّة. ويصلُ ارتفاع الفوَّارة الآنَ إلىَ ٢٠ متراً، وأمَّا عنْ قاعدتِها فهىَ ١٤ × ١٢,٧ متر. وللفوارةِ قبةٌ ضخمةٌ مزخرفةٌ من الداخلِ بشريطٍ كبيرٍ منْ آياتِ القرآنِ الكريم التى لهَا علاقةٌ بالوضوءِ، وذلكَ لأنَّ الفوارةَ كانتْ تستخدمُ أيضاً كميضةٍ. وتظهرُ الكتاباتُ والحروفُ العربيَّة مستخدمةً طريقةَ الكتابةِ المعروفةِ بالنسخ. ويعْتلى قمةَ المبنَى منْ داخلِ القبةِ شكلٌ دائرىٌّ زخرفىٌّ منَ الذكرِ الحكيمِ. أمَّا عنْ الحوضِ فهوَ مثمنُ الشكلِ.

وتحيـطُ بالصَّحن أروقـةٌ مكونةٌ منْ عددٍ كبيرٍ منَ الأعمـدةِ التى تتميزُ بتيجانٍ (أعلَى العمودِ) متأثرةً بالشَّـكل الكورنثىِّ (شـكلٌ زخرفىٌّ نباتى

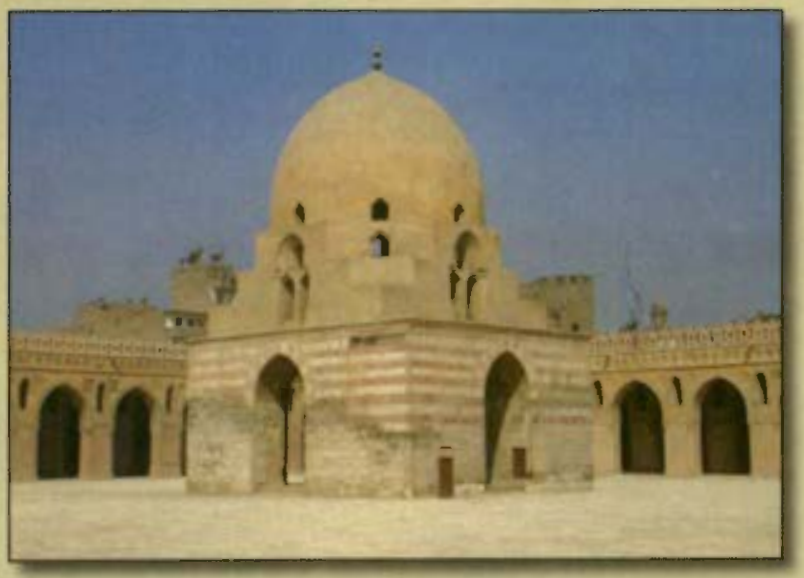

الفوارة تتوسط الصحن الواسع المحاط بالبوائكِ المحلاة بالزخارف الوردية

يونانـىٌّ). وتصـلُ الأعمـدةُ ببعضِها عددٌ كبيـرٌ منَ العقـودِ التى زُينت بالزَّخارفِ المتعددةِ الجميلةِ. ومنْ أبـدَعِ مَا أُنجـز فى هذَا المسـجدِ المبهـرِ، أفريـزٌ (شـريطٌ) يحيطُ بالأروقـةِ الأربعةِ للمسـجدِ، هذَا الأفريـزُ مصنوعٌ مـنَ الجصِّ الذِى يعلوهُ ألواحٌ خشبيَّة مكتوبٌ عليهَا سـورتَا البقرةِ وآل عمـرانِ بالخطِّ الكوفىِّ.

المئذنة الفريدة وبوائك مزخرفة وأروقة ممتده

إيـوانُ القبـلة :

المحـراب الرئيسـى مصنوع من خشـب الجميز والرخام والفسيفساء

يعتبـرُ إيـوانُ القبلـةِ المكونُ منْ خمسـةِ أروقـةٍ وبوائـكَ هـوَ أكثرُ الإيوانـاتِ زخرفـةً وأهميـةً مـنِ الناحيـةَ الدينيـةِ والفنيَّـة؛ وذلكَ لوجودِ المحرابِ المؤدِّى إلىَ الجهةِ التـى يتوجهُ إليهَـا المصلونَ ناحيةَ القبلةِ المشـرَّفة بمكةَ. والشىءُ الذى يجعلُ هذَا الرواقَ متفردًا عنِ الأروقةِ الأخرَى فى المسجدِ، بل فى المسَاجد الأخرَى، أنَّ بهِ خمسةَ محاريبَ غيرَ مجوفةٍ مضافةٍ إلىَ المحرابِ الرَّئيسى المجوفِ وهوَ منْ أعمالِ السلطانِ المملوكىِّ البحرىِّ «لاجين» وقد زُين بقطعِ الفُسيفسـاء الصَّغيرة، البالغةِ الدقـة المصنوعةِ منَ الزجاجِ والذهبِ، وبهِ

الشهادة داخل المحراب الرئيسى فى حائط القبلة

أيضاً الشَّهادة باللونِ الأسوَد البرَّاق. أمَّا الجزءُ الخشبيُّ الأعلىَ للمحَاريب فهوَ منْ خشـب الجميزِ، واستعمالُ هذَا النوعِ منَ الخشبِ لهذه الأغراضِ يعتبرُ من الأشْياءِ النادرةِ فى تاريخِ المعمارِ الإسلاميِّ المصرىِّ.

أحد المحاريب الخمسة فى إيوان القبلة

أمّا عنَ المحَاريب الخمسةِ فهىَ :

١ - محرابُ الوزيرِ الأفضلِ ابنِ القَائد بدرِ الدينِ الجمالىِّ. وقدْ أضافَه إلىَ المسـجدِ فى عام ١٠٠٤ ميلادياً، ويبلغُ ارتفاعُه ٣ أمتارٍ وبهِ العديد منَ الزخارفِ الهَندسـيَّة والكتاباتِ الكوفيَّة، وهوَ محرابٌ مسـطحٌ فاطمىٌّ (الفاطميونَ كَانوا ينتهجونَ المذهبَ الشيعىَّ رغمَ أنَّ أحمدَ بنَ طولونَ كانَ سنيًّا).

٢ - محرابُ السَّـيدة نَفيسة. وهوَ مسطحٌ ويرجعُ إلىَ القرنِ الثَّالث عشَر الميلادىِّ وهوَ مزينٌ بكتاباتٍ نسخيةٍ وكوفيةٍ.

٣ - محرابٌ آخر للسلطانِ «لاجين».

٤ - محرابٌ طولونىٌّ منَ الجصِّ.

٥ - محرابٌ فاطمىٌّ آخرُ منَ الجصِّ.

الزهور المنحوتة على البوائك فى منظومة بديعة

زخـارفُ المسجـد :

تفننـتْ أناملُ المزخرفِ فِى مسـجدِ ابن طُولـون، فتباينتْ الأفاريزُ والعقودُ وازدهرَ فى محاكاةِ النباتِ والزُّهور والأغصانِ وأوراقِ الشَّـجر. أفـرزتْ هذِه الوحداتُ الزخرفيَّة سـواءٌ أكانتْ من الجصِّ أو الخشـبِ أشْرطة من الزخارفِ التى تكوِّن أفاريزَ حولَ العقودِ وفوقَ الدَّعائم وحداتٌ نباتيَّة عبارةٌ عنَ وردةٍ مستديرةٍ تحتلُ موقعاً متوسطاً بينَ الأجزاءِ العُليا للعقودِ التى تشرفُ علَى الفناءِ الداخلىِّ. وعندَما أضافَ السلطانُ «لاجين»

تفاصيل الطبق النجمى

المنبرَ إبَّانَ العصرِ المملوكىِّ زادتْ كنوزُ الفنِ فى المسجدِ كنزاً آخرَ، وتميزتْ جوانبُ المنبرِ بالحشواتِ التى تكوِّن شكلاً هندسياً وفنياً يحَاكى نجومَ السماءِ. هذِه الوحدةُ يطلقُ عليْهَا الطَّبق النَّجمى وهوَ عادةً مَا يكونُ مزخرفًا بالحفرِ وخيوطٍ من العظم، وفى أحيانٍ أخرىَ كانَ مطعمًا بالفضةِ أو العَاج. وقد أخذَ الطَّبق النجمىُّ أشكالاً كثيرةً منَ الفسيفساءِ ويُرسم أيضاً علَى البلاطاتِ الزُّخرفية. وفِى حالاتٍ أخْرَى يكونُ الطبقُ النَّجمى بالحفرِ البارزِ علَى الجصِّ. التكنيكُ الإسلامىُّ هنَا - كمَا هوَ الحالُ فى أخلاقياتِ الفنِ وقواعدِه فِى الدينِ الإسلامىِّ - يبعدُ كلَّ البعدِ عنْ تصويرِ الأشخاصِ ويقتربُ من ابتكارِ زركشاتٍ مستوحاةٍ يرْتقى بالفنِ إلىَ مرتبةِ الحسِّ المرهفِ فأصبحَ هذَا النمطُ مرغوبًا فيهِ منَ الآخرِ فتمَّ نقلهُ واقتباسُه. هذَا النوعُ منَ الفنِ الذى وافق عليهِ الإسلامُ لهوَ الوسيلةُ التى ترتقِى بالذوق الإنسانىِّ إلىَ مراتبَ حسيةٍ عاليةٍ، فوحداتهُ تُدْخِلُ الإبهارَ فى نفسِ الرَّائى كمَا تخترقُ شعورَه الداخلىَّ لتزيدَه فرحةً وسعادةً وتبْنِى داخلَه تدريجياً درجاتٍ منَ الإعجابِ تزيدُ عندمَا يدرسُها ويحللُها ويفسرُها.

لوحةُ التأسيس :

لوحة التأسيس ويلاحظ عدم وجود نظام النقط الحرفى

يميزُ هـذَا المسـجدَ اللوحةُ التأسيسـيةُ المتفـردةُ والنَّادرةُ والتـى تعتبـرُ أثـرًا مهمًا جداً لأنهَا وثيقـةٌ مؤكدةٌ تذكرُ العامَ الذى أسـسَ فيه المسجدُ. وهيَ لوحةٌ مستطيلةُ الشَّكل، مصنوعةٌ منَ الرخام، يصلُ ارتفاعُها إلَى ١,٦ متر وَعرضُها إلى ٩٧ سـم. وهـىَ موجـودةٌ فـى الـرُّواق الثَّالث منَ الصَّحن علَى الجانبِ الأيمنِ مـنَ الطريقِ المؤدِّى إلىَ المحـرابِ. وهىَ ترجعُ إلىَ عامِ ٢٦٥ هجريَّـة (٨٧٩ ميلاديـاً) حسـبَ مَا جاءَ فى النَّص المنحوتِ علَى اللوحةِ. وتقول الدكتورة سـعادُ ماهرُ محمدُ فى كتابِها «مساجدُ مصرَ وأولياؤهَا الصالحونَ»: إنَّ جامعَ ابنِ طولونَ يعتبرُ أقدمَ مسـجدٍ فِى العالم يحتوى عَلى لوحةٍ تذكاريَّة. ويبدأ النصُّ المنحوتُ على اللوحَة بالبسْـمَلةِ ثمَّ آية الكرسـى ثمّ آخر آيةٍ فى سُـورة الفتح (الجزء السادس والعشـرون وترتيبها ٤٨ وآياتها ٢٩) ثم جزء منْ آية ١١٠ من سـورة آل عمران ثم آية ١٨ منْ سُـورة التوبةِ، ثم نصُّ البناءِ متضمناً اسمَ البانى وألقابه وَأدْعيته وصلواته على النبى عليه أفضل الصلاة وأتم التسْليم، بالإضافةِ إلى تاريخ التأسيس.

المئذنة:

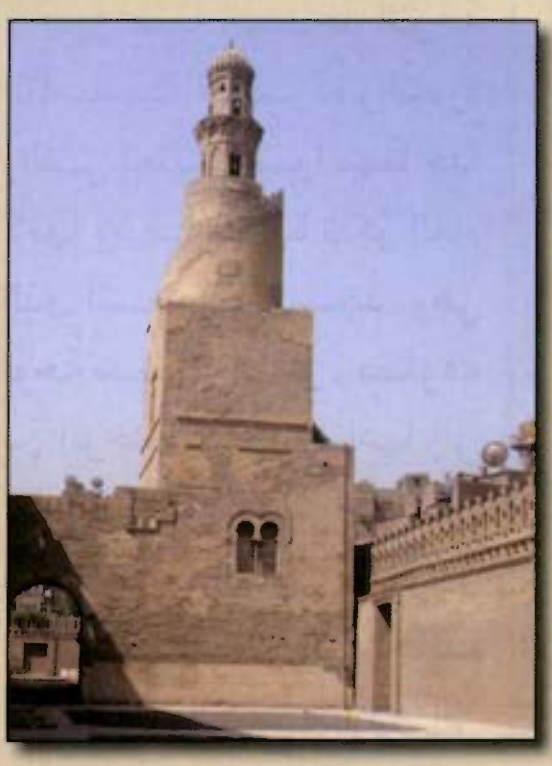

المئذنة المتعددة الطوابق فى الزيادة

تقعُ هذهِ المئذنةُ الفريدةُ فى الزِّيادة الشَّمالية الغربية بينَ حائطىْ المسجدِ والزيادةِ. ويبلغُ ارتفاعُها ٤٠ متراً. تمَّ تشييدُها منَ الحجرِ الجيرىِّ. وبمَا أنهَا قدْ تفردتْ عنِ المآذنِ الأخرَى فِى مصرَ كونُها مشيدةً خارجَ جسدِ المسجدِ وليسَ داخلَ أو فوقَ جسدِ المسجدِ نفسِه كمَا هوَ معتادٌ، فقدْ جنحَ المهندسُ المعمارىُّ إلى بناءِ كوبرى صغيرٍ مبنىٍّ علَى قنطرتينِ مقوستينِ علَى شكلِ حدوةِ حصانٍ، يصلُ هذَا الكوبرى المئذنةَ بالسطحِ الذى يعتلَى بوائكَ الجَانب الشَّمالى الغربى للمسجِد.

وتتميزُ المئذنةُ الطولونيةُ الأصلِ بصفةٍ أخرىَ تتفردُ بهِ عن سائرِ المآذنِ ألاَ وهىَ أنَّ لهَا أكثر من مرحلةٍ وطابقٍ ويحيطُها درجٌ ذو سورٍ ينتهى أعلَى المئذنةِ.

أمَّا عنَ الصفةِ التى جذبتْ أنظارَ الجميع ومازالتْ، هى أنَّ جزءًا كبيرًا منَ المئذنةِ قد شُيد بشكلٍ حلزونىٍّ أو ملتوٍ. وقدْ أجزمَ بعضُ المؤرخينَ بأنَّ هذهِ هىَ فكرةُ أحمدَ بنُ طُولون نفسُه لمَّا أرادَ أنْ تشبه مئذنتُه

المئذنةَ الملويةَ بسامرَّاء بالعراقِ (سامرَّاء هىَ مدينةٌ أثريَّةٌ مَشهورةٌ بالعراقِ وبهَا مئذنةٌ عظيمةُ الارتفاعِ والضَّخامة علَى شكلٍ حلزونىٍّ).

- الطَّابق الأولُ شكلُه مربعٌ ويصلُ ارتفاعُه إلى ٢١,٣ مترٍ وقدْ تمَّ زخرفةُ كلِّ جانبٍ من جوانبه بكوتينِ مغلقتينِ (مسدودتينِ وليستا مفتوحتينِ كنافذتينِ) علَى شكلِ حدوةِ حصانٍ.
- الطَّابق الثَّانى مبنىٌّ علَى شكلٍ أسطوانىٍّ تحيطُه سلالمُ حلزونيةُ الشَّكل منَ الخارجِ. ويصلُ ارتفاع هذَا الطَّابق إلى ٨,٥ أمتار. أمَّا عَن الطَّابق الثَّالث فهوَ مثمنُ الشَّكل، ويؤدِّى إلىَ الطَّابق الرَّابع والأخير والذِى تعلوهُ قبةٌ علَى شكلٍ مبخرةٍ حجريَّة. ويعتقدُ بعضُ علماءِ التاريخِ والآثارِ الإسلاميَّة أنَّ المئذنةَ الآن هىَ نتاجُ عصرِ أحمد بنِ طولونَ وإضافات وترميماتِ عصرِ السلطانِ «لاجين» (عام ١٢٩٦ ميلادياً).

الطابق الحلزونى (الملتوى) المؤدى إلى الطابق المثمن للمئذنة

المنارةُ الحلزونيةُ :

مئذنةُ أحمدُ بنُ طُولون تميزتْ بوجودِها خارجَ جسدِ المسجدِ، ولكنَّها تقعُ شاهقةً داخلَ الزِّيادة المجاورةِ لمسجدِ صرغتمش فى النَّاحيةِ المقابلةِ لإيوانِ القبلةِ. تمَّ

وصلُها بسطحِ المسجدِ العلويِّ عنْ طريقِ كُوبرى صغيرٍ يفتحُ فى بوابةٍ تشكلُ الفجوةَ الوحيدةَ فى صفِ عرَائس السَّماء الحجريَّة التى تزينُ أطرافَ السَّقف العَالى للمسجدِ من النَّاحية الخارجيَّة مشرفةً علَى الزيادةِ.

المنارةُ عُرفتْ بالملويَّة أو الحلزونيَّة لوجودِ جزءٍ يمثلُ الجزءَ المتوسطَ أو الوسيطَ علَى شكلٍ اسطوانىٍّ، يحيطُه درجٌ خاصٌّ يلتفُ حولَه ليكونَ الشكلَ النهائىَّ مماثلاً (معَ الاختلافِ فى الحجم والتكنيكِ المعمارىِّ) للمئذنةِ الملويَّة بمدينةِ سَامراء العراقيةِ التى تربَّىَ فيهَا أحمدُ بنُ طُولون وتأثرَ بهَا وبعمارتِها. هذَا الطَّابق الوسيطُ يأخذُ المنَارة كلَّها منَ الشَّكل المربعِ المكونِ للقاعدةِ المزينِ خارجياً بنوافذَ مصمطةٍ (صمَّاء، ليستْ مفتوحةً علَى جانبِها الآخر) وينقلُها ببراعةِ المهندسِ المعمارىِّ والعاملِ المَاهر إلى الشَّكل المثمنِ الذى يعتليهِ شكلُ المبخرةِ القائمةِ علَى أعمدةٍ صغيرةٍ حجريَّة. المبخرةُ ذاتُ الأعمدةِ كانتْ إضافةً منَ السلطانِ لاجين ولمحةً منَ التأثرِ بالمعمارِ المملوكىِّ فى عام ١٢٩٦ ميلادياً. وتعتبرُ هذهِ المبخرةُ الحجريَّة من أوَّل الأعمالِ فى منارات القاهرةِ وأقدمِها.

كانَ يعتلَى المئذنةَ قاربٌ صغيرٌ منَ النُّحاس، ذكرها المؤرخونَ ورسمهَا الفنانونَ الذينَ زَاروا مصرَ الإسلاميَّة. فى الحقيقةِ لمْ تكنْ تلكَ المئذنةُ هىَ الوحيدةُ التى يعتليهَا قاربٌ صغيرٌ، أو الوحيدةُ ذاتُ الشكلِ المُلتوى، فضريحُ الإمامِ الشَّافعى والذى شُيد فى شكلِه الكبيرِ إبَّان العصرِ الأيوبى يعتليه قاربٌ صَغيرٌ، وكانتْ مئذنةُ مسجدِ الأميرِ «سيف الدين طاشتيمر» الكائنِ فى جبَّانة الصَّحراء بالقاهرةِ كانَ لهَا الشَّكل الحلزونىُّ ولكنَّها غيرُ موجودةٍ الآنَ للأسفِ.

مئذنةُ أحمدُ بنُ طولونَ شُـيدتْ منَ الأحجارِ، ولكنَّ المسـجدَ شُيد منَ الطُّوب. روى بعضُ الدارسينَ لقصةِ السُّلطان لاجين وهذَا المسجدِ الفسيحُ يؤكدونَ أنَّ السَّبب الأساسيَّ الذِى جعلَ لاجين يقومُ بترميم وإضافةِ بعضَ البنايـاتِ مثل القبُة التِى تعتَلى منطقةَ المحرابِ والفوَّارةَ التِى تتوسـطُ الفنـاءَ بعدَ أنْ دُمرت الأصليةُ فى حـادثٍ وأعمَاله فى المئذنةِ، أرجَعوا كلَّ هذَا إلى النَّذْرِ الذِى نَذَرَه عندمَا تمتْ محاصرتُه وتضييقُ الخناقِ عليهِ فلجأَ إلى مسجدِ ابنِ طولونَ ليختبئَ بهِ، فنذرَ أنَّه لو نَجا منْ هذَا الحصارِ وخرجَ منه سالماً ليعمرَ فيهِ وهوَ مَا حدثَ بالفعلِ.

يُحكـى أنَّه ذاتَ مرةٍ دخلَ المقربونَ لأحمدَ بنِ طولونَ عليهِ، فوجدوهُ يلْـوى ورقةً بأصابعه (كالقمع أو القرطاسِ) فسَـألوه، وذلكَ لأنَّهم كَانوا يعلمـونَ تمـامَ العلم أنَّه لمْ يكَنْ يحبُ اللهوَ بلْ كانَ إنسـانًا جادًا، فقالَ لهم إنَّه يريدُ أن تكونَ مئذنتُه مثلَ المئذنةِ الملويَّة بسـامرّاء، وقدْ أطلقَ علَى مدينته سامرّاء لأنَّ كلَّ منْ رآها سُرَّ فسُميت بسُرَّ منْ رأى أو سَرمراء أو سَـامِرّاء، والحقيقـةُ أنَّه حتىَّ يومنا هذا يُسـرُ كلُّ مـنْ يَرى مئذنتَه وجامعَـه علَى جبلِ «يشـكرُ» كأثـرٍ نادرٍ باقٍ من مدينتِه التى أسَسـها: «القطَائع».

المنبـرُ:

هذَا المنبرُ البديعُ منْ أعمالِ السُّـلطان لاجين. وهوَ ثالثُ منبرٍ باقٍ فِى حالةٍ جيدةٍ جداً من الناحيةِ التاريخيَّة فى مصرَ، حيثُ إنَّ هناكَ منبرينِ قبلَه، واحدٌ يرجعُ إلىَ العصرِ الفَاطمى وهوَ موجودٌ فى دير سَانت كَاترين والآخرُ فى مدينةِ قوصِ الجميلةِ. المنبرُ مصنوعٌ منَ الخشبِ وبهِ العديدُ

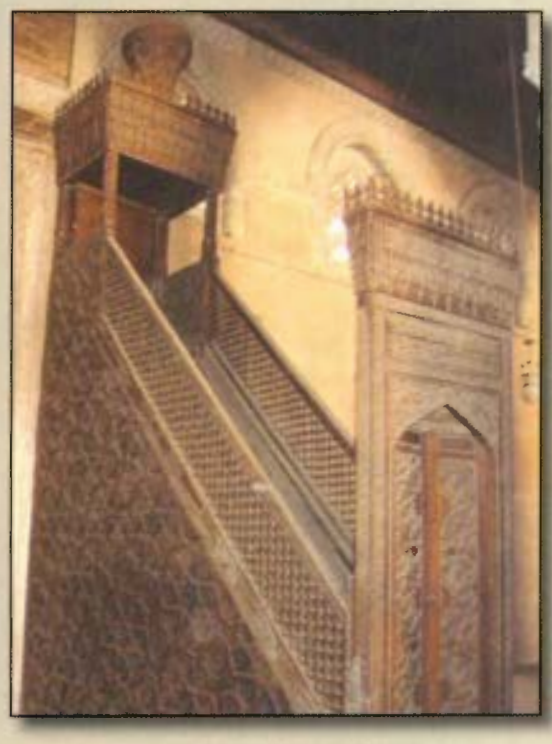

المنبر الخشبى

منَ الزخـارفِ والتَّطعيمات الفنيةِ البديعةِ، ومنهَـا الوحداتُ الفنيةُ المسماةُ «طبقُ النَّجمة» حيثُ تتوسطهُ نجمةٌ بديعةٌ وطبقٌ مُستدير محلَّى بأشكالٍ لُوزيَّةٍ. ويوجدُ بالمنبرِ أيضاً فنُّ المقرنصاتِ، وهىَ وحداتٌ فنيةٌ تُحاكى الأشكالَ الصَّخرية المدببةَ المتدليةَ مـنَ الكهـوفِ الجبليةِ. وبالمنبرِ بـابٌ جميلٌ يـؤدِّى إلىَ سُلَم يصعدُه الخطيبُ ليلقىَ خطبتَه مـنْ أعلَـى حيثُ يسـتطيعُ جميعُ الحاضرينَ رؤيتَه وسماعَه.

عرائسُ السَّمـاء :

منْ أهمِّ العناصرِ الفنيَّة التى تميزُ مسجدَ أحمدَ بنِ طولونَ هىَ : «عرائسُ السَّـماء»، ومنَ الممكنِ رؤيتُها منْ خارجِ المسجدِ وداخِله، بلْ منْ أعلَى بيتِ الكريتليةِ، وبالتحديدِ منْ السَّـقفَ المُحلى بالمشـربيَّة الخشبيَّة، ومـنْ أعلَـى إذا صعدتَ المئذنةَ. وهىَ عبارةٌ عنْ عددٍ كبيرٍ منَ الأشـكالِ الحجريَّة التى تشبهُ العرائسَ المُمسكةَ بأيدى بعضِها فى صفٍ متشابكٍ ومتصلٍ. وبمَا أنَّ الأشـكالَ الإنسانيَّة والصُّور بشكلٍ عام تقليدٌ غيرُ متبعٍ فى مسـاجدِ المسـلمينَ فقدْ جنح الفنانُ الطولونىُّ إلَـىً محاكاةِ العَرائسً بشكلٍ رمزىٍّ غيرِ محددِ المعالمِ وغيرِ مفصَّل القسمَاتِ.

عرائس السماء

أرقامٌ فى حياةِ ابن طُولون :

١ – أسَّس الدولةَ الطولونيةَ فى عام ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م وتُوفىَ فى عَام ٢٧٠ هـ/ ٨٨٢ م (يقولُ ابنُ إياسٍ إنَّه تُوفىَ فى عام ٢٦٩هـ) وبهذَا يكونُ قدْ حكمَ مصرَ وسائرَ البلادِ التى كانتْ مملكتُه تحتويهَا حوالى ستةَ عشَر عاماً.

٢ – تولىَ عرشَ مصرَ بعدَ موتِ الأمير «خمارويةَ»، واحدٌ من سبعةِ عشرَ ابنًا ذكرًا (من زوجتينِ) وست عشرة بنتًا.

٣ – كتبَ «إبراهيمَ وصيف شاه» قصةً فى منتهَى العجبِ ملخصُها أنَّه عندمَا وصلَ أحمدُ بن طولونَ إلىَ مصرَ كانَ فى حالةٍ ماليةٍ مزريةٍ، يقولُ: «يحتقرُه كلُّ منْ يراهُ» حتىَّ أعطاه رجلٌ من الأعيانِ ١٠,٠٠٠ دينار (عشرةَ آلافٍ من الدنانير) غيَّرت مِن حياتِه ووجهتْ

دفّة الأمورِ إلى صالحهِ مستقبَلاً. أصبحَ هذَا الرجلُ - واسمُه «على بن معبد البغدادى» من المقربينَ.

٤ - تكلفَ بناءُ مسجدِه ١٢٠,٠٠٠ دينارٍ (مائةً وعشرينَ ألفًا من الدنانير).

٥ - تكلفَ بناءُ البيمارستان (المُستشفى الذى أمَّن العلاج لعديمى الدَّخل ومحدودِيه منَ الشَّعب مثل فكرةِ التأمينِ الصحىِّ الآنَ) حوَالى ٦٠,٠٠٠ دينارٍ (ستينَ ألفَ دينارٍ).

٦ - شيدَ عددًا منْ ورشِ صناعةِ المرَاكب الحربيَّة بالرُّوضة ووصلَ عددُها إلى ألفِ قاربٍ تتميزُ بالسرعةِ.

٧ - حجمُ الإنتاجِ المصرىِّ وصلَ - إبَّان حكمهِ - إلىَ أربعةِ ملايينَ ونصفِ المليون دينَار ذهبٍ تقريباً.

٨ - مازالَ مسجدُه هوَ أكبرَ مساجدَ مصرَ (مساحتُه ٦,٥ فدان).

٩ - يذكرُ المقريزىُّ قصةً تدلُ علَى سرعةِ غضبِ ابنِ طُولون وكذلكَ سرعةِ تسامحِه فَى المقابلِ، ملخصُ القصةِ أن إمامَ المسجدِ لمْ يذكرُه فى الدُّعاء، فأمرَ بجلدِه خمسمائةِ جلدةٍ، فلمَّا تذكرَ، جعلَها مكافأةً وصلتْ إلىَ خمسمائةٍ منَ الدَّنانير.

١٠ - «محمدُ بنُ أحمدَ بنِ إيَّاس الحنفىِّ المصرىِّ» المؤرخ المعروفِ ذكرَ فى قرطاسِه الثرىِّ بالمعلوماتِ: «بدائعُ الزهورِ فى وقَائعِ الدهورِ» أرقامًا مبهرةً أشبهَ بالأسطوريةِ. يكتبُ «ابنُ إياسٍ» ناقلاً عن «ابن وصيفِ شاه» الذى أحصىَ ثروةَ أحمدَ بنِ طولونِ بعد وفاتِه فكانتْ:

(أ) منَ الذهبِ العين عشرةُ آلافِ ألفِ ألفِ دينارٍ.
(ب) خلَّف من المماليك سبعةَ آلافٍ مملوكٍ.
(جـ) خلَّف من الخيولِ سبعةَ آلافِ فرسٍ.
(د) من البغالِ والحميرِ ستةَ آلافِ رأسٍ.
(هـ) خلَّف من الجمالِ عشرةَ آلافِ جملٍ.
(و) ألفَ مركبٍ حربيٍّ.
(ز) خلَّف من اللؤلؤِ والجواهرَ واليواقيتِ مائةَ صندوقٍ.
(حـ) خلَّف من التُّحف والفرشِ مَا لاَ يُحصى عددُه.
وهذَا خارجٌ عنِ الضِّياع والأملاكِ والبسَاتين وغيرِ ذلكَ.

١١ - وهبَ ابنُ طُولون مبلغ ١٠,٠٠٠ (عشرة آلافِ دينارٍ) لمهندسِ المسجدِ.

١٢ - أرَّخ «القُضاعى» لبناءِ المسجدِ فكتبَ: «فابتدأَ بنيانهُ فى سنةِ ثلاثٍ وستينَ ومائتينِ، وفرغَ منه سنةَ خمسٍ وستينَ ومائتينِ». وتمَّ افتتاحهُ فى رمضانَ سنة ٢٦٥ هـ مايو ٨٧٩ م.

١٣ - كانَ بمدينةِ القَطائع، عاصمةِ ابنِ طُولون (البسَاتين الآنَ)، حوَالى مَا يزيدُ علىَ المائةِ ألفِ منزلٍ وبيتٍ، وهوَ عددٌ كبيرٌ جداً يدلُ علىَ اكتظاظِ العاصمةِ بأهلِها. هكَذا، جذبَ ابنُ طُولون النَاسَ مِنْ كلِّ صوبٍ ليَعيشُوا ويَعمرُوا بعاصمتِه. بلْ وصلتْ طموحاتُه، التى كانَ يضيقُ بهَا الخيالُ، إلىَ أنَّه حاولَ محاولةً جادةً وجريئةً لنقلِ عاصمةِ الخلافةِ العباسيَّة مِنْ بغدادَ إلى القطَائع ولكنْ لمْ يتمْ لهُ هذَا.

١٤ – اعتلَى ابنُ طُولون عرشَ مصرَ وما لَها، وهوَ فى عمرٍ يناهزُ الرابعة والثلاثينَ.

١٥ – دخلَ مصرَ يومَ الأربعَاء ٢٣ رمضانَ ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م.

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٣٤٣٣
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7721-8

٢٢ / ٢٠١٠ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)